سادسا: العلاج الروحي في الجزائر

زيارة الأولياء أنموذجا

مقدمــة

وعى الإنسان منذ القديم بهشاشة جسده و بطلانه بسبب الألم والمرض و الشيخوخة. و هذا الفكر مطلق و مشاع بين الجميع و في كل الحضارات و الثقافات.

فالاهتمام بالذات و العناية بالجسد يهدفان قبل كل شيء إلى حماية هذا الجسد من كل أسباب المرض و الألم و الهرم و الموت ، و العلاج عبارة عن حقيقة حتمية وجدت و فرضت على الفرد بسبب رغبته في التداوي و التخلص من أمراضه و آلامه، و الباحث في التراث الشعبي يلمس ويدرك أن الممارسات الشعبية العلاجية الروحية ظاهرة كغيرها من ظواهر الحياة الاجتماعية تاريخية و معاصرة في نفس الوقت، بل هي حقيقة متغلغلة في البنية الذهنية الإنسانية الشعبية للمجتمع ، يلجا إليها الأفراد للتخفيف من معاناتهم و آلامهم .والسؤال الذي يطرح نفسه في هذه المقال هو كيف ترسخت هذه الظاهرة، و أصبحت معتقدا شعبيا عند العامة و الخاصة ؟.

أولا: مفهوم الأوليــاء

إن ظاهرة زيارة الأولياء ، و تقديس الأموات بتقديم الهدايا بغية الاسترضاء قصد النفع أو الاتقاء ، ظاهرة لها جذورها التاريخية، حيث كان الإنسان البدائي يؤمن بوجود قوى مسيطرة ذات قدرة أسمى من قدرته ، و من قدرة الكائنات المحيطة به ، فجسم الاله يستطيع الوصول إليه بتقديم القرابين و الذبائح بغية التقرب منه ليبعد عنه الشر ، و يجلب له الحظ السعيد .

1-في المعتقد الشعبي:

الأولياء هم رجال الله الصالحون يتميزون بالفلاح و التقوى عن سائر الناس ، ولهم القدرة على قضاء المصالح ، و شفاء المرضى لما خصهم الله به من كرامات و يعتقد الناس فيهم أنهم حماة هذا العالم

من نوائب الدهر ، و دفع الضرر عن قراهم و مدنهم ، كل مدينة كبيرة أو صغيرة محروسة بولي من الأولياء ،فهو الذي يحميها من الغارات و من النكبات الطبيعية ،

من طمع الطامعين (1).

2-في المفهوم العقيدي:

الولي هو الذي يتولى عبادة الله و طاعته بإخلاص دون أن يتخلله عصيان ، و الله سبحانه وتعالى يتولاه بالرعاية و الكرامة .

قال تعالى : « إن أولياء الله لا خوف عليهم و لا هم يحزنون الذين امنوا و كانوا يتقون لهم البشرى في الحياة الدنيا و في الآخرة »(2)

و قال عليه الصلاة و السلام أيضا : « ذهبت النبوة و بقيت المبشرات [3]»(3) . و المبشرات لا تكون إلا للأولياء ، كما يطلق على الولي اسم " المرابط " و الكلمة مشتقة من الرباط ، و هو الحصن ويعرف عند الفرنسيين باسم caps de garde الذي كان يلازمه المجاهدون للدفاع عن حدود بلادهم في عهد الدولة المرابطية التي تأسست على أساس ديني ، ثم تحول الحصن إلى مكان للعبادة و قيل لمن يقوم فيه مرابط لملازمته الرباط و انقطاعه للعبادة و خدمة الدين ، يدفع بدعائه البلاء عن العباد و البلاد فاستحق اسم " المرابط " (4).

ثانيا: عوامل انتشار القبب والأولياء في الجزائر

1-الانحطاط الفكري و العقيدي الذي عرفته الجزائر في عهد الدولة المرابطية :

قبح فقهاء المرابطين الفلسفة و علم الكلام و النظر فيهما بحجة كراهية السلف لها، (5) و نسجوا الأساطير حول شيوخهم فاثروا في عقول الناس.

2- انتشار الزوايا:

أسس المرابطون و أتباعهم الزوايا في الأرياف و المدن، و كان عدد الزوايا والأضرحة يفوق عدد المساجد و المدارس في الجزائر (6)، كما كانت لهذه الزوايا و الأضرحة ا مكانة مميزة ، حيث كان يلجأ إليه الهاربون من العقاب و القتل مهما كانت جرائمهم للاختباء فيها .

فقد كان الولاة و العامة يعتقدون في حصانة الزاوية و الضريح ، و يكفي أن يهرب الجاني إلى هذا المكان فلا يمسه سلطان بأذى. لما للأولياء من قدرة على تسليط غضبهم على من يهين حماهم (7).

3- خضوع الجزائر للحكم العثماني لفترة طويلة:

يذكر الدكتور " أبو القاسم سعد الله " أن من ابرز مميزات العهد العثماني في الجزائر انتشار الطرق الصوفية ، و كثرة المباني (الزوايا ، و نحوها..)، فكثير من الطرق الصوفية الواسعة الانتشار تحمل اسم احد الأولياء كالقادرية و الأحمدية ، و الشاذلية...الخ (8).

4- تشجيع الاستعمار الشعب الجزائري على زيارة الأضرحة:

شجع الاستعمار الشعب الجزائري على زيارة الأولياء، و على انتشار الشعوذة و الدجل بما كان يقدمه لمريدي هذه الحركات من مساعدات مادية و معنوية متسترا أحيانا وراء قاعدة الالتزام باحترام عادات و تقاليد و مقدسات هذه الفئة الشعبية، بل لقد بلغ به الأمر أن سعى إلى توظيف الدين الإسلامي عبر بعض أصحاب هذه الزوايا لتحقيق عدد من مآربه و أغراضه و ذلك لإيمانه بما لهذه الزوايا من تأثير روحي على خيال الشعب.(9)

5- إحياء فكرة تقديس الأموات :

إن تقديس الحي للميت ظاهرة قديمة قدم الإنسانية، و في هذا الشأن يذكر الباحث تايلور« إن عبادة الأجداد نشأت من الاعتقاد بالأرواح فالأجداد في القبائل البدائية بيدهم مقاليد الأمور لأنهم اخبروا بشؤون الحياة ، فإذا ماتوا فان أرواحهم ترفرف في سماء الأسرة لتقيها شر النوائب... هذا الاعتقاد هو الذي حمل البشر على عبادة الأسلاف ». (10)

إن الاعتقاد بضرورة تقديس أرواح الموتى يفسر لنا مجموعة من الممارسات الدينية التي سادت في المجتمعات القديمة والمعاصرة، فهذه الأرواح لها الرغبات و الميول نفسها التي كانت تنزع إليها عندما كانت تسكن الجسد . لذلك فهم يتقربون إليها بالضحايا والقرابين، (11) كما أن الكرامات التي عايشها الإنسان في الولي ولامسها أثناء حياته هي التي دفعته إلى تقديسه .ومثل ذلك تحويل شيء إلى شيء آخر مطلوب ، التنبؤ بالمستقبل ، الحوار مع الجن ، الحوار مع الموتى ، تسكين الرياح و غيرها .

ثالثا: وصـف الولـي

ما يلاحظ هو أن جل الأضرحة و الأولياء بنيت في أماكن مرتفعة ، والسبب في ذلك يعود إلى الاعتقاد السائد بأن المكان المرتفع مقدس منذ القدم ، إذ أن سيدنا نوح عليه السلام لما دعا ابنه ليصبحه معه في السفينة قال: « ساوي إلى الجبل يعصمني من الماء »، و لما طلب سيدنا موسى من ربه المكاشفة قال:« انظر إلى الجبل فان استقر مكانه فسوف تراني » .

أما في المعتقد الشعبي فان الولي يتربع فوق المكان المرتفع ليحمي البلاد و يحرسها من كل شر.

للمكان المرتفع للولي شكل مربع فوقه قبة كبيرة لونها اخضر ، داخله قبر الولي ، ويوجد وسطه صندوق من الخشب و عليه قطع من القماش الأخضر ، و لعل ما يلفت الانتباه أن لون جل أماكن الأولياء لونها اخضر و محاطة بالأشياء الخضراء. و السبب في ذلك كما يعتقدون أن اللون الأخضر رمز " الخير و النعم " ، فـ "الخضرة" تعني التقرب إلى الأولياء الصالحين ، و هو لون الهدوء و الخصب و الراحة و الشفاء ، و بعض الناس يجعلون في أيديهم أو في خصر كل منهم خيطا اخضر طلبا للشفاء و يؤخذ من القماش الذي يغطي ضريح الولي الصالح ، فالأخضر رمز " صوفي " قديم (12).

كما يمثل هذا اللون لباس الصالحين في الجنة طبقا لقوله : « أولئك لهم جنات عدن تجري من تحتها الأنهار يحلون فيها من أساور من ذهب و يلبسون ثيابا خضرا من سندس و إستبرق » الكهف31.

و يوجد حول الولي فناء به أشجار ، و في اعتقادهم أن الولي كان يستظل بظلها و يأكل من ثمارها كشجرة الزيتون و التين و غير ذلك ، و يوجد به أيضا بئر يروي عطش الزوار ، وايضا ليحصلوا على بركته ، و نجد به أيضا بيوتا مخصصة لإيواء الزائرين القادمين من بعيد ، و حول الولي مقبرة يدفن فيها الموتى ، و في اعتقادهم أن الميت يحظى ببركة الولي ، و لكل ولي أيضا خادم يحرسه ويقوم بتجهيزه كشراء القماش أو أواني للولي لقضاء الحاجة .

رابعا: **اختصـاص الولـي:**

إن المريض و في صورة إخفاق العلاج العلمي فانه يتجه في الغالب إلى العلاج الشعبي، وبعدها إلى المعالج الروحي " الولي "، وهذا بدون وعي منه بأنه ينتقل من رؤية للجسد تشريحية فيزيولوجية علمية إلى رؤية شعبية، ثم إلى رؤية غيبية سحرية، وهدفه من كل هذا ليس معرفة الجسد بل كيفية علاج هذا الجسد (13).

يلجأ المريض في حالة عدم شفائه إلى البديل و يستصنع لنفسه إيمانا مجسدا ملموسا، و يكون الولي هو الفضاء الخارجي الذي يجد فيه الزائر راحته و صحته .

و يختص الولي في معالجة الأمراض النفسية و الفيزيولوجية التالية؛

*العلاج من الجن: حيث يتم إدخال المصاب بالجن داخل الضريح و يغلق عليه الباب و يترك هناك ليصرخ و يبكي حتى يغمى عليه و من ثم يشفى.

*تزويج العانس : تغتسل الفتاة بعين الولي وتترك ملابسها الداخلية الجديدة، أو تعلقها على الشجرة الموجودة بالعين ثم تأخذ منها حزاما (خرقة) كانت معقودة بتلك الشجرة ، فهذه الطريقة في نظر الزائرين تفك " الثقاف"[14] ، وتتزوج الفتاة بعد فترة معينة قصيرة

*معالجة المرأة العاقر : تغتسل المرأة العاقر أيضا بعين الولي و تقوم بنفس الطريقة التي قامت بها الفتاة العانس و من ثم تحمل و ترزق أولادا .

إن الشعور بالإحباط العميق في جسد المرأة يدفعها إلى اللجوء لزيارة الأولياء، وطلب الشفاء منهم، الهدف من ذلك هو التأقلم مع المحيط و فرض الذات في المجتمع الذكوري .

ففي هذا الفضاء تفرغ المرأة مكبوتاتها وتتحرر فيه نسبيا من سلطة الدين و الرجل و المجتمع.

هذا من ناحية ومن ناحية اخرى نجد أن الولي يختص في معالجة عدة أمراض فيزيولوجية منها؛ " الشقيقة "، " الروماتيزم " ، "عرق الإنسان" ، و غيرها فيدخل المريض داخل الولي ، و يأخذ من تراب قبره ويذهن به العضو المصاب.

خامسا: **مواقيت الزيارة و طقوسها :**

غالبا ما تكون زيارة الولي يوم الخميس و الجمعة، و ذلك لان يوم الخميس وصف بأنه " "أنيس" و ذلك للاعتقاد بحسن فأله (15)، و اختير يوم الجمعة أيضا لأنه يوم عبادة عند المسلمين ويوم راحة ،و أول شيء لهذه الزيارة أن تكون مصحوبة بالنية لقضاء الحوائج ، و ثانيا خلع الزائر النعل و الدخول حافي القدمين ، ثالثا إشعال الشموع و الطواف حول الضريح في خضوع وإذلال، و تقبيل التابوت ، و مسح الأعضاء بالتراب ، و رابعا حرق البخور .

و لعل هذه العادة مترسبة في نفسيات الأفراد منذ عصور ما قبل الإسلام لان الوثنيين كانوا يحرقون البخور لآلهتهم و معبوداتهم من طلب تحقيق مقاصدهم و كذلك طلبا لرضاها ،

و بعد مجيئ الإسلام ، بقيت هذه العادة سارية المفعول ،و بقي المسلمون يحرقون البخور في المساجد والأضرحة و في أماكن التبرك قصد تعطيرها تقربا من الله و الأنبياء الصالحين ومنهم من يقوم بذلك إرضاء للجن (16)

إضافة إلى ذلك نجد أن استعمال النار يعود للمعنى الديني لها، فقد ارتبطت بتجربة البشر مع قوتها التدميرية، و من ثم قوتها النافعة...كما مثلت الشعلة رمز للتطهير و الطهارة. (17)

و من طقوس الزيارة أيضا أن يضع الزائر بيده الخضبة "بالحناء" كف (خامسة) على جدران الولي ،و هذا في اعتقاده بمثابة عهد يقطعه على نفسه أمام الولي، كأن يقيم لو " وعدة" كل سنة .

سادسا: دوافـع **و أهداف هذا السلـوك العلاجي (زيارة الأولياء) :**

استحضار هذا السلوك يهدف من ورائه خلق بنية مطمئنة تمكن الفرد و الجماعة من إيجاد توازن عاطفي وجداني ، و يرى "نور الدين طوالبي" إن الإنسان يلجأ للمقدس لينظم وضعه المشوش، وعن طريق الطقوس يتقرب من العالم المقدس و هو موضع تهدئة اضطراباته .(17)

فالإنسان الذي يتعرض إلى أقصى درجات الاعتباط من الطبيعة بحاجة إلى ولي لشدة شعوره بعجزه و قصور إمكاناته في مجابهة مصيره، حيث تلم به النوائب أو يصاب في نفسه أو ذويه أو قوته ، فيتخذ الولي حليفا و نصيرا كي يتوسط له لدى العناية الإلهية . لان الولي هو ولي الله ، و من خلال التقرب منه تتحقق الحاجات ، فتنتشر ظاهرة التعلق بالأولياء و اللجوء إليهم لجلب الخير ودرء الشر.(18)

و ما هو جدير بالذكر أن الاعتقادات الطقوسية في الأولياء ميزة تختص بها النسوة أكثر من الرجال، فزيارة المرأة لهذا الفضاء الخارجي كحيز مقدس له مكانته في النسيج الحضري و الريفي....و الدوافع الكامنة وراء زيارة المرأة للأولياء الصالحين كانت لها علاقة كبيرة بالجسد الأنثوي الذي كان يبحث عن متنفس أو عن الفرج " السحري " من عند الولي الصالح. (19)

إن الاعتقاد في الأولياء ينبغي اعتباره ردا على قلق الأنا أي كنسق للطمأنينة ، يمتص جزءا من التوتر النفسي و القلق ، إذ أن القلق معطى أساسي في نفسية الإنسان و خاصة في نفسية العنصر النسائي. وهكذا يتم طمأنة الأنا من الخوف من المرض و الموت و من كل ما يسيطر على الإنسان من العالم الخارجي المليء بالتهديدات ، فيشيع نفسيا نوع من الاطمئنان إلى القدر و المصير .(20)

فمهما اختلفت طقوس و أساليب الممارسات الشفائية عبر الزمان و المكان، إلا أن غرضها واحد؛ فهي طريقة يحتمي بها و من خلالها الإنسان مما يتنازعه في هذا الوجود من قسوة وشرور ،و هي طرق لمواجهة الانكسار و الألم ، أو على الأقل لمواجهة خوفه و توهمه من هذا الانكسار و الألم .

سابعا: نظـرة الإسلام إلى ظاهـرة زيارة الأولياء:

يقول "نور الدين طوالبي" في هذا الشأن : « إن تقديس الأموات و تقديم الولاء لهم يفضي إلى الشرك أو الحرام مهما كان المستوى الذي يتموضعون فيه ، و مهما تكن الصفة الحقيقية للنعمة التي استحقوها من الله و في الواقع حرام كل من يعود إلى عبادة أي إنسان ميت أو حي، و مثل ذلك بناء القباب إكراما للأولياء و الزيارة الطقسية الدينية المرافقة لها ، و يعتبر ذلك حالة تبشيرية وثنية أكثر من كونها تدل على الإشراك بالله. [21]

و يرى الشيخ " محمد شلتوت" أنه على واضع الشموع و المناديل على مقامات الأولياء أن يعي بأن الدين لا يعرف شيئا يقال له مقامات الأولياء سوى ما يكون للمؤمنين المتقين عند ربهم من درجات.... و إن قبورهم كقبور سائر موتى المسلمين ، يحرم تشييدها و زخرفتها و إقامة المقابر عليها ، و تحرم الصلاة فيها و إليها و الطواف بها و مناجاة من فيها و التمسح بجدرانها وتقبيلها والتعلق بها... إلى آخره.[22]

خـلاصـة:

من خلا ل كل ما ذكر يمكننا القول بأن بناء الأضرحة و تقديس الأموات و زيارة القبور، ظاهرة قديمة تشترك فيها الأمم السابقة واللاصقة و هي من رسوبات و بقايا الوثنية .

كما أن الاعتقاد في الأولياء غير مقتصر على الفئات الشعبية بل هي ظاهرة اجتماعية يشترك فيها بعض المثقفين والأميين، كما يشترك فيها الغني والفقير. و رغم محاربة الدين الإسلامي لهذه الظاهرة ، إلا أنها لا زالت راسبة في الأذهان متعلقة بالوجدان ، يصعب تجاوزها ، و خاصة من قبل النساء فهن الأكثر ترددا على زيارة الأولياء وطلب الشفاء من عندهم.

الهوامش:

القرآن الكريم برواية ورش

1-أبو القاسم سعد الله ، تاريخ الجزائر الثقافي ، ج1 ، مكان الطبع، 1981 ، ص470 .

2- سورة يونس ، الآيات 62-63-64 .

3-الزمخشري ، الكشاف ، ج2 ، مكان الطبع والسنة، ص 223 .

4-عبد الرحمن الجيلاني ، تاريخ الجزائر العام ، ج1 ، بيروت ، 1980 ،ص 307

5- المرجع نفسه، ص 312 .

6-أبو القاسم سعد الله، مرجع سابق، ص 266 .

7- المرجع نفس ، ص 270 .

8- محمد الجوهري ، علم الفلكلور ، دراسة المعتقدات الشعبية ،ج2، دار المعرفة الإسكندرية ، ص153

9- شايف عكاشة، الصراع الحضاري في العالم الإسلامي ، مدخل تحليلي في فلسفة الحضارة عند مالك بن نبي ، ديوان المطبوعات الجامعية ، الجزائر ، 1988 ، ص 11 .

10- طه الهاشمي ، تاريخ الأديان وفلسفتها ، بيروت ، 1978 ، ص 68 .

11- سعدي صناوي ، مدخل إلى علم اجتماع الأدب ، دار الفكر العربي ، بيروت ،ط1994،1، ص 207 .

11- غمشي بن عمر ، سيميولوجية اللون في التشكيل الإسلامي –المنمنمات على مقامات الحريري نموذجا- ،رسالة ماجستير ، نوقشت سنة 2001- 2002 بجامعة تلمسان. ص117..

12- صوفية السحيري بن حتيرة ، الجسد و المجتمع ، دراسة انتروبولوجية لبعض الانتقادات والتصورات حول الجسد ، دار محمد علي للنشر ، تونس ، الطبعة الأولى ، 2008، ص 309 .

13- الثقاف : عملية سحرية الهدف منها منع الفتاة من الزواج .

14-نينا جميل ، الطعام في الثقافة العربية ، نيسان ، الطبعة الأولى ، 1994 ، ص 129 .

15-ثريا التيجاني ، دراسة اجتماعية لغوية للقصة الشعبية في منطقة الجنوب الجزائري ، دار هومة للطباعة و النشر و التوزيع ، الجزائر، ط1998،1 ، ص50 .

16- مانفرد لوركر ، معجم المعبوذات و الرموز في مصر القديمة ،تر صلاح الدين رمضان، مراجعة الدكتور محمد ماهر ، مكتبة مدبولي ، ط1، القاهرة ، 2000، ص 231 .

17- نور الدين طوالبي ، الدين و التغيرات و الطقوس، ر وجيه البعيني منشورات عويدات ، بيروت باريس ، ديوان المطبوعات الجامعية ، ط1، الجزائر ،1988 ، ص 37 .

18- صوفية السحيري بن حتيرة ، مرجع سابق ، ص 314 .

19- المرجع نفسه ،ص314 .

20- المرجع نفسه، ص317

21-نور الدين طوالبي ، مرجع سابق ، ص 95 .

22- محمد شلتوت ، الفتاوى ،دراسة لمشكلات المسلم المعاصر في حياته اليومية العانة ، دار الشروق ، القاهرة ، 1982 ، ص 195/194

المراجع مرتبة نرتيبا ابجديا